بسم الله الرحمن الرحيم

للهادي الحمد، منه المعونة، وإليه الفضل في التوفيق

والصلاة والسلام على كافة أنبيائه ورسله الداعين إلى الحق والفضيلة

تصدير

يقوم نظام الجامعات على أساس البحث الحر، والاستقراء التام، وإيقاظ روح النقد الصحيح، وتنشيط الباحثين بكل وسيلة صالحة.

على هذا الوضع السديد، ولهذه المقاصد السامية قامت جامعتنا المصرية، فنهض أساتذتها الأجلاء بأعبائها الأولى، ودأبوا مخلصين متفانين في سبيل تكوين حركة علمية حديثة في مصر على أساس تحرير العقول من أسر القيود وأغلال الأوهام؛ فكان لبحوثهم وتحقيقاتهم شيء كثير من الأثر الصالح في تقوية الروح العلمية البحتة، وفي استنهاض الهمم بمعالجة المسائل العلمية، وفحصها، وتفهمها، وتدبرها لاتساع دائرة الأفكار والنظر. وظهر أثر جهودهم في بيئات الأمة العلمية عامة، وفي لفيف من تلامذتهم خاصة، فاندفع هؤلاء الأبناء في حلبة العمل، وتسابقوا في ميدان التقصي في البحث، حتى انجلت مساعيهم عن إنعاش حياتهم العلمية، ورفع مستوى ثقافتهم العقلية؛ فأخرجوا لأمتهم من الرسائل العلمية ما يشهد لهم بدقة البحث، ومضاء العزم، وطول الأناة.

واليوم أتقدم برسالتي إلى حضرات الأساتذة راجيًا أن أكون قد أدركت في جمعها ومعالجة فصولها بالبحث الوافي مقدارًا من التوفيق والسداد يتناسب مع مجهودي في الدرس والتحصيل، وإذا ساغ لي التصريح بأني أتنور ذلك فإنما هذا القول الذي يقول: (ومن سار على الدرب وصل).

وأما اختياري موضوع الرسالة فيرجع إلى ناحية هي عناية كل الأمم بتربية الذرية القاصرة، والبحث عن أتم الوسائط وأحكمها، وأقوم الأساليب وأنجحها لتحقيق أشرف غايات التربية الكاملة من أقرب المناهج، وأوضح المسالك؛ إذ على قواعدها الصحيحة تقوم الحياة الحافلة بالأعمال الخالدة (فالرجل الكامل ثمرة التربية الكاملة).

ولما كانت صيحة العلامة سبنسر قد أحدثت -بلا نزاع- تغييرًا جوهريًّا في الخطط العلمية والتعليمية، وكان لهذا التغيير أثر خاص في الحياة المادية التي تحياها الأمم الناهضة، ولما كان موقفنا الحالي يشبه موقف البلاد التي نادى العلامة سبنسر بضرورة تغيير نظم التربية فيها -عنَّ لنا أن نجعل آراء هذا الحكيم موضوع بحثنا سِيَّمَا وقد تضمن رسالته كثيرًا من استقصاء العيوب، واستقراء النقائص التي انتابت مبادئ التربية، وشوهت أساليبها، فبعدت عن مطابقتها لروح النواميس الطبيعية، وباينت طباع الطفل وغرائزه، ونحن نرى من بين ما ذكر سبنسر من المثالب أمورًا كثيرة شائعة بيننا فاشية فينا، كان -على ما نعتقد- من أكبر عوامل تقاعدنا وتواكلنا وتهيبنا الإقدام، وضعف همتنا الذاتية، فمازلنا نعالج الطفل على أنه رجل قبل أن تمكنه السنن الطبيعية من أن يكون رجلًا، وحاولنا من طريق الإرهاق أن نملأ عقول الأحداث بعلوم شتى لا قبل لهم بتدبرها وتفهمها؛ فقصرت «التربية» عن إعدادهم للعيشة الكاملة، وعن تأهيلهم للعمل الصالح والأخلاق القويمة.

وما زلنا ندرج معهم على أسلوب نظري في حين أن الجانب العلمي العملي لم ينل -في مناهجنا الدراسية، وفي نظمنا التعليمية- قسطًا يساعد على إنماء قوة الإنتاج، وما زالت غاية الأغلبية العظمى من تربية ذراريهم تخريج أفراد يقومون بأعباء بعض المناصب الحكومية، حتى لمسنا أثر تلك الخطة الخرقاء لمسًا في مظاهر الضعف البادية في حياتنا الاقتصادية وفي حسنا الخلقي.

وجهة البحث: قد يقال إن غير واحد تناول البحث في رسالة سبنسر، ونحن نسلم بهذا القول؛ لأن الرسالة أثارت اهتمام العلماء والباحثين من رجالات التعليم والتربية، فكتب كثير من العلماء عن هذه الرسالة، وما أكثر ما كتبوا! وما أكثر اختلافهم فيما كتبوا! فلفيف منهم آمن بكل ما جاء فيها من آراء وأفكار ومبادئ وقواعد، فعمد إلى تأييدها، ودعا إلى الأخذ بها في تنشئة النشء، في حين أن فريقًا آخر رأى فيها كثيرًا من الغلو والإسراف والإغراق، فذهب إلى تفنيدها وجاهر بمخالفته لها.

وأما نحن فقد عنَّ لنا أن نعرض لناحية أخرى من نواحي بحثها محاولين أن نستوضح ما في بعض هذه الناحية من غموض وإبهام، ومحاولين أن يحقق ما في هذه الناحية من مسائل مر عليها الباحثون وهم صامتون، ولعل أهم هذه المسائل أن نتبيَّن إلى أي حد كان تأثر سبنسر بمن سبقه

من الفلاسفة والمربين، وإلى أي حد أحدث بآرائه من الانقلاب في الخطط العلمية والتعليمية، وإلى أي حد وصلت صيحته في هذا الصدد، ولماذا كان لصدى صيحته دوي أقوى في غير بلاد الإنجليز.

ولعلنا ندرك أثناء البحث والتحقيق وجهة نظره في نقده نسق التعليم الذي كان مألوفًا في ذلك الحين والمؤثرات التي خضع إليها في بحثه، والعوامل التي أملت عليه أوجه إصلاحه؛ فنتبيَّن ما في دعوته من حق ومن غير حق؛ لنأخذ هذا الحق، ونواجهه بنظام تعليمنا الحالي، فإذا ألفينا بينهما خلفًا بحثنا عن علة ذلك الخلف لاستئصالها، وأوضحنا المنهج القويم لمسابرة ذلك الحق الصالح لتربية ذرارينا، والملائم والمحقق لآمالنا فالرسالة إذن محاولة لا تعدو التحليل، والتعليل، والتطبيق.

طريقة البحث

كان للمهنة أثر خاص؛ فإن مزاولتي مهنة التعليم والتربية كمدرس في المدارس الأميرية منذ خمسة عشر عامًا، وتخصصي في تدريس فن التربية بمدارس المعلمين الأولية منذ ثلاث سنوات وجدت فيها من تشجيع حضرات المفتشين ما حملني على قراءة جملة صالحة مما دُوِّن في هذا الفن، وحبب ذلك إليَّ الاهتمام بموضوع فن التربية، ودفعني للانكباب عليه، وخيل إليَّ أني سائر في عملي بنجاح مطرد جعل الميل يتجه إلى هذا الاختيار شيئًا فشيئًا، حتى اشتد وصار رغبة فعزمًا، وبدأنا في قراءة ما أشير به إلينا مما دُوِّن في تاريخ التربية؛ لنقف على نشوء مذاهب التربية وتطورها وتدرجها، وبعد أن تم لنا ذلك شرعنا في تفهم رسالة سبنسر وتدبرها، ثم حاولنا بحثها وتحليلها، وقد كان ضروريًّا أن نقرأ قدرًا مما كتبه الباحثون عن سبنسر وعن رسالته؛ لنزن هذه الآراء المتباينة بميزان وجهة نظر سبنسر -فيما ذهب إليه- حتى نستطيع أن نكوِّن عن رسالته رأيًا خاصًّا بنا، ولعل المصادر التي نوَّهنا عنها -في غير هذا المكان- تشير إلى القدر الذي اعتمدنا عليه في البحث والتحقيق.

ثانيًا: تم تفريغ ما استوعبناه من الآراء شرعنا في أن ننزع من الحوادث الصادقة، والأحكام الصحيحة ما نؤيد به حججنا. ولما استقر بنا الأمر إلى ما اهتدينا إليه عمدنا إلى تدوينه في رسالتنا

هذه، ثم جعلناها أربعة أقسام أفردنا كل واحد منها في كتاب خاص.

وقد حاولنا في الكتاب الأول أن نبيِّن كيف كان تدرج التربية في العصور المتقدمة إلى عصر سبنسر على أساس الترتيب الذي بيناه في فهرس الكتاب الأول مكتفين بالإشارة إلى تدرج الآراء التي كان لها مساس بتطور الأساليب والغايات حتى عصر سبنسر تاركين لتاريخ التربية بيان ذلك على الوجه الأكمل.

وفي الكتاب الثاني أوضحنا نشأة سبنسر العلمية لإظهار ما لعصره من الأثر في تكوين نزعته، وما لمواهبه من الأثر في تكوين ثقافته، وما لثقافته من الأثر في تكوين مذهبه الفلسفي...، إلى آخر ما فصلناه في فهرس الكتاب الثاني.

وفي الكتاب الثالث تعرضنا إلى بحث رسالة سبنسر في التربية، وتحليلها؛ لنبيِّن كيف كتب رسالته، وما وجهة نظره في استخفافه بثمرة الآداب واللغات القديمة، وأي المعارف أنفس في نظره...، إلى آخر ما أوردناه في فهرس ذلك الكتاب.

أما الكتاب الرابع -وهو الأخير من رسالتنا- فقد عقدنا فيه فصولًا عن مكانة سبنسر بين المربين، فكان لا بد لنا أن نوازن بينه وبين لفيف من أئمة التربية، ثم عالجنا في هذه الفصول صيحة سبنسر وأثرها في الخطط العلمية والتعليمية، وختمنا الرسالة بكلمة وجهنا بها عناية المربين إلى ما يتطلب نظام تعليمنا من إصلاح يقتضيه العصر الحاضر؛ إذ يلوح لنا أنه قد حان الوقت -ونحن في نهضتنا الحديثة- إلى تهيئة عقول النشء الحاضر وأبناء الأجيال القادمة للحياة العملية المنتجة التي تدفعنا إليها سنن الرقي؛ لنبرز في الذكاء المصري قوى الكشف عن أسرار الطبيعة، والاختراعات المتنوعة، وصحة الحكم على الأشياء، وابتكار وسائل جديدة لإنماء حياتنا الاقتصادية.

غايتنا من البحث

لا نكون مغالين إذا قلنا: إن إرواء الشهوة العلمية كان الغرض الخاص من هذا البحث أما الغرض العام فأن تتاح للمربين فرصة الوقوف على طرق العلاج الناجح من خلال بحثنا وتحقيقنا؛ ومن ثَم نرجو أن يكون لها الأثر الصالح -أو بعضه- في توجيه عناية المربين لتغيير هذه الحياة الخاملة التي نحياها الآن بحياة ملؤها النشاط والعمل والإقدام؛ حياة ترتكز على قواعد

علمية عميلة يؤخذ بها الأحداث، وتستند إلى خطة قويمة تدعهم منذ نعومة أظفارهم يتعرفون كل ما حولهم بمساعي أنفسهم، ويكابدون الحوادث، ويلمسون الأخطار بأيديهم، ويعتمدون على أنفسهم في تذليل الصعوبات، ويخضعون للعقل وللعقل وحده في مواجهة الحقائق.

وعلى كل الاعتبارات التي قدمناها -والتي لا يسمح لنا المقام في هذا التصدير بالتبسط فيها- نرجح كثيرًا أننا قد أردنا الخير العام من هذا الاختيار.

لهذا استمد العون من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى سديد الآراء، وناضج الأفكار في تلك (المحاولة) مسترشدًا بروح سبنسر العالية، ومحتذيًا حذوه في نقده الجريء وعلاجه البريء.

على أن الباحث خليق بالتشجيع والتنشيط، لا لأنه وُفِّق في بحثه إلى الحق؛ بل لأنه أجهد نفسه وحاول البحث عن الحق؛ فنحن نملك المحاولة والله وحده يملك التوفيق ويمنحه من يشاء

{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين}

عبد الكريم أحمد السكري

الاثنين ١١ شوال عام ١٣٤٦ - ٢٤ برمهات عام ١٦٤٤ - ٢ أبريل سنة ١٩٢٨

obeikandl.com